حضور القدس في أغراض الشعر وفنونه

الحديث هنا هو كيف تناول العرب موضوع القدس في قصائدهم، وماذا شكلت بالنسبة لهم هذه المدينة في أغراض الشعر وكيف تطور تناولها في الشعر مع تطور الأحداث، يتنوع التناول الشعري لمدينة القدس بتنوع الدوافع، وتظهر هذه الدوافع في الأسلوب والنهج واللغة التي تعبر عن القدس وقضيتها.

لا يخفى على إدراك القارئ أن أغراض الشعر هي: الفخر والمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والحنين والوصف والحكمة والمثل.. وأن من عناصر الفنون الشعرية المعاني (في ابتكارها) والأخيلة (في سعتها) والألفاظ (في جزالتها) والأساليب (كحسن التخلص أو الوقوف على الأطلال) والأوزان والقوافي.

وفي محاولاتنا البحثية الحثيثة حول القدس وأغراضه في شعر العرب، نكشف عن جزء من المساهمة في سبر العلاقة التاريخية بين هذه البلاد وبين القدس والأقصى، حيث القدسية الروحية قبل المقاومة وبعدها وما تحمله من دلالات قومية وإيديولوجية.

فهذا الشاعر المصطفى بن معاوية التندغي (ت 1979م) يكتب مطولة في هجاء إسرائيل ويصف حرب 1973 وما صنعته الجيوش العربية معددا حكام العرب بأسمائهم، يقول[80]:

دويلة إسرائيل قدما بلا عهد وقدما بلا جاه وقدما بلا جهد

إلى أن يقول[81] :

[80] ديوان المصطفى بن معاوية التندغي- تحقيق وجمع: د/ احمد محمود بن الدنبجة (عمل مخطوط).

obeikandl.com

وجاء إلى القدس الحسين وقومه لتدمير من قد كذبوا صادق الوعد

دويلتهم هام لها كل دولة وهم ذنب أو جيد كلب بلا عقد

وكل يهودي لدى النقد زائف فلا هو أصلا في نحاس ولا نقد

إذا ما رأيت الوفد منتسبا لهم ترى الذل مضروبا على أوجه الوفد

ويذهب الشاعر محمد عبد الله ولد عمارو إلى أبعد من ذلك، عندما يستخدم تقنية النص الموازي من أجل أن يزيد في هجائياته المعاصرة للزمن العربي الرديء، بحيث ظهرت عناوين النصوص منبئة عن مضمونها وغرضها، كل ذلك بلغة منتقاة من قاموس الغضب والخراب، يقول في المقطع السادس من قصيدة الجزيرة:

حديقة يعرب نجم (مسدس)

وترفع مئذنة القدس

الله أكبر/ الله أكبر

ثعالب حيفا هرير

عواء/ سعالي تلابيب رعب وذل.[82]

---

[81] المصدر السابق.

[82] محمد عبد الله بن عمر- دمع الغروب – ص 10.

محمد ولد عبدي في (حنينه)-مثلا- يكثف رمزية الغربة والحنين في قصيدته (جفرى)، فهو المتغرب عن وطنه، لا يجد تعبيرا عن مرارة الغربة، أكثر من قصة (عامر)، وهو شاب فلسطيني في الخامسة والعشرين من عمره، تعرف عليه الشاعر وامتدت الصلات بينهما فترة من الزمن.

وكانا كلما التقيا، يغني (عامر) موال (جفرى) ، ثم يتحدثان عن الشعر وعن (طرفة ابن العبد)، وكلنا نعرف إن طرفة توفي في عمر قريب من عمر الشاب الفلسطيني هذا ، ويتمتم (عامر) بالعامية[83]:

يا ظريف الطول وكف تاكولك / رايح للغربة وابلادك احسنلك

وبعد فترة يستشهد (عامر) في جنين، فيتذكر الشاعر كلماته الأخيرة في مقهى جمعهما ذات يوم[84]:

هل تعرف معنى أن تعشق في الأرض المحتلة

قلت : ثقيل

فالحب بلا معنى إن غاب المحبوب

والمحبوب بلا ذكرى إن غصب القلب

وأنت/ تخوفت عليه ولم أقصد إلاي.

ويذكرنا المختار السالم أحمد سالم بقول نزار قباني[85]:

---

[83] محمد عبد الله بن عمر- المصدر السابق – ص 10.

[84] محمد ولد عبدي – كتاب الرحيل وتليه الفصوص، ص 73.

دمشق يا كنز أحلامي ومروحتي أشكو العروبة أم أشكو لك العربا

وإذا ما عدنا إلى الوراء نرى في رثائها ما قاله القاضي أبو المظفر الأبيوردي يرثي القدس ويحث على الجهاد[86]:

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عُرضة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شُبَّت نارها بالصوارم

فإيها بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم، يقرع بعدها سنَّ نادم

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى رماحهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم

أيرضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغضي إلى ذل كماة الأعاجم

فليتهموا إذ لم يذودوا حميةً عن الدين ضنُّوا غيرة بالمحارم

---

[85] نزار قباني: الأعمال السياسية الكاملة، ص421.

[86] الكامل (284-10) عن كتاب أيعيد التاريخ نفسه (34) .

يا قُدْسُ قَدْ غَامَتْ رُؤايَ[87]

يا قدسُ قد غامتْ رُؤايَ

يا قدسُ أنتِ سَجينةٌ

والقيدُ أوَّلُهُ يداي

يا قدسُ أحلُمُ كُلَّ يومٍ

أنْ يضُمَّكِ ساعِداي

يا قدسُ مَثْقوبٌ أنا

كَثُقُوبِ ناي

فَلْتعزِفي حُزني لأبكي

رُبَّما هدَأتْ خُطاي

يا قدسُ جِسمي طَلَقَةٌ

فَلْتُطلقيها واعلمي

أنَّ البِدايَةَ منكِ كانتْ مُنتهاي

[87] عبد العزيز جويدة، ديوان الشعر الفصيح.

obeikandl.com

(2)

يا قدسُ قالوا مِن سِنينْ:

أشجارُ أرضِكِ سوفَ تُزهِرُ ياسَمينْ

عارٌ علينا

كَفِّني عارَ العُروبَةِ وادفِني في الطينْ

كُلُّ المزارعِ فيكِ تَطرحُ لاجئينْ

فبأيِّ وجهٍ إنْ سُئلنا مِن صِغارٍ

يَسألونَ عن الوطنْ:

في أيِّ خَارِطَةٍ فَلسطينُ التي

ما عادَ يَذكُرُها الزمنْ؟

ماذا نقولْ..

والطِفلُ يُولَدُ في فَلسطينِ المَراثي ،

في فلسطينِ المحنْ..

بِيَدٍ تَشُدُّ على الزِّنادِ

obeikandl.com

وفي اليدِ الأُخرى كَفَنْ؟

المسجد الأقصى لهم أم لك: أبيات شعر تلعثم بها لساني حين زرت المسجد الأقصى في القدس في عطلة الصيف في 5/ 8/ 1966م[88]:

المسجد الأقصى إليَّ اشتكى وقرّح العينيْن لمَّا بكى

يا حسرتا قد عقّه أهلُه لما ارتأوا درب الهوى مسلكا

قد كان فيض النور إكليله فما له أمسى بنا محلكا

إن كنت لا تدري فسلْ سوره عن أمّة الفاروق إنْ أدركا

ينبئك إنّ العُرب ماتوا ولم يكتب لهم رَبُّهم مهلكا

حلّت بعاث الطير في حَيّهم واعجبْ أخي للوغد أن يملكا

قد قال لي السور وقد هاجني المسجد الأقصى لهم أم لكا!

فضاقت الأرض على رحبها وقلت يا رب ارحمْ عبدكا

[88] مقدسيات الشاعر برهان الدين العبوشيّ، من ديوان النيازك.

obeikandl.com